

أطروحات تزفيتان تودوروف النقدية في مدار النقد الما بعد كولونيالي

Tzvetan Todorov's Critical Theses
in the Post-Colonialist Orbit of Criticism

د. رشيد وديجي

الكلية متعددة التخصصات-الرشيدية

جامعة مولاي اسماعيل- مكناس (المغرب)

oudija1979@hotmail.com

تاريخ النشر: 2022/06/30	تاريخ القبول: 2022/5/10	تاريخ الإرسال: 2022/4/3
-------------------------	-------------------------	-------------------------

Abstract:

The research proceeds from the premise that Zvetan Todorov's critical theses in the course of post-colonial criticism constituted a new cultural turning point, based on history and analysis of the discourse and strategies by which it produces meaning, in order to represent the ideology of the times, as part of an enlightening bet that seeks to contribute to the understanding of today's problems, in the context of a historical project that emphasizes the importance of historical awareness in theoretical practice.

Keywords: Representation; Centralization; The other; Ideas; Difference; Diversity.

الملخص:

ينطلق البحث من فرضية أن أطروحات تزفيتان تودوروف النقدية في مدار النقد الما بعد كولونيالي شكلت منعطفًا ثقافيًا جديدًا، يستند فيها إلى التاريخ وتحليل الخطاب والاستراتيجيات التي ينتج بها معناه، من أجل تمثل إيديولوجية العصر، وذلك في إطار رهان تنويري يسعى إلى المساهمة في فهم مشاكل الحاضر، في سياق مشروع تاريخي يؤكد على أهمية الوعي التاريخي في الممارسة النظرية.

كلمات مفتاحية: التمثيل؛ المركزية؛ الآخر؛ الأفكار؛ الاختلاف.

1. مقدمة:

في الوقت الذي ظلت فيه السرديات البنيوية ضمن أفق لسانيات الجملة، منغلقة على الحدود النحوية التي يفرضها نموذج افتراضي مجرد للسرد، لا تتجاوزها إلى ما هو أبعد من الجملة، ستظهر مقاربات دينامية جديدة، تقارب السرد في وظيفته عبر اللسانية. وهذا ما سيحتم انفتاح النظرية السردية على تحليل الخطاب وعلى الشعريات الثقافية والدراسات النسوية والنظرية ما بعد الكولونيالية.

ضمن هذا السياق، شكلت كتابات تزفيتان تودوروف في مرحلة "ما بعد البنيوية"؛ المنصبة على إعادة قراءة الثقافة الغربية من منظور يتسم بالمراجعة والنقد، وفي طليعتها كتاباه: "فتح أمريكا، مسألة الآخر"¹ و"نحن والآخرين، النظرة الفرنسية للتنوع البشري"²، المنتميان إلى مجال "تاريخ الفكر" منظورا إليه من زاوية "فكر الاختلاف" الذي يقوم بنقد أوهام المركزية العرقية والثقافية في السياق الثقافي الغربي الذي هو منطلقه وغايته.³

فلم يعد صوت الباحث مستبعدا بحجة الموضوعية كما في المرحلة البنيوية، بل أصبح مسموعا، لا يكتفي بالوصف، بل يفسر ويؤول ويفاوض النص، وذلك من موقع إنساني ينخرط بموجبه الباحث في سياسات الحاضر ومشكلات التاريخ، محملا بالقيم الإنسانية، عبر استراتيجية حوار ثقافي بحثا عن الحقيقة، متبنيا ما يمكن تسميته بالتأويل الحواري "لقد أردت تجنب تطرفين: الأول هو إغراء سماع صوت هذه الشخصيات على نحو ما هو عليه، إغراء السعي إلى أن أختفي أنا أيضا حتى أخدم صوت الآخر على نحو أفضل. والثاني هو إغراء إخضاع الآخرين لنفسني، إغراء جعلهم مجرد دمي يسيطر المرء على جميع خيوط تحريكها. وقد بحثت بين التطرفين ليس عن ساحة حل وسط، بل عن طريق الحوار. إنني أسأل هذه النصوص وأبدل مواقعها وأقوم بتأويلها، لكنني أيضا أدعها تتكلم (من هنا كل هذه الاستشهادات) وتدافع عن نفسها... لم تتكلم هذه الشخصيات بنفس اللغة التي أتكلم بها. لكننا لا ندع الآخر يحيا بمجرد تركه على حاله، كما أننا لا نتوصل إلى

ذلك بطمس صوته الكامل. لقد حاولت رؤيتهم، قريبين وبعيدين في آن واحد، كما لو كانوا يشكلون أحد المتحاورين في حوارنا.⁴

وفي هذا الإطار، سنعمل على إبراز كيف انكب تودوروف على دراسة الظاهرة الاستعمارية، الاستشراقية وموقع الآخر في التصور الغربي لحظة اكتشاف أميركا أو إنشاء المستعمرات الأوروبية. في كتاب نحن والآخر، يعكف تودوروف على دراسة هذه الميكانيزمات التي قام عليها التاريخ الحديث. والشاغل الذي ما فتئ يتكرر في مشغوله النظري هذا هو شاغل الذاكرة. الذاكرة بما هي أداة إنعاش للتاريخ وقد شمله المحو بفعل عنف الاستعمار وآلياته الشاطبة.

2. نقد أوهام المركزية العرقية والثقافية في السياق الثقافي الغربي:

1.2 نقد قصة الاكتشاف والفتح:

ابتداء من الثمانينات سينخرط رائد الشعرية تودوروف، بعد تعرفه على أعمال الناقد الثقافي إدوارد سعيد في الأفق الثقافي التاريخي الجديد، حيث سينتقل إلى الاهتمام بقضايا التمثيل والغيرة الثقافية وصور الآخر، وسيدشن هذا المنعطف التاريخي الجديد بكتابه " فتح أمريكا"، الذي يعد "عملا رئيسيا في مجال تحليل الخطاب، ويتناول بشكل مباشر وظيفة وقوة الكتابة في الوضع الكولونيالي. وتكمن رؤية الكتاب الثورية في تحديده موقع الملمح الأساسي للاضطهاد الكولونيالي عند السيطرة على وسائل الاتصال وليس السيطرة على الحياة والممتلكات أو حتى اللغة نفسها".⁵

يتكون عنوان كتاب "فتح أمريكا" من شقين يحكيان الكتاب كله، ف "فتح أمريكا" هو موضوع الكتاب، بينما "مسألة الآخر" هي قضيته. يقول تودوروف في أول سطور الكتاب: "أود الحديث عن اكتشاف الأنا للآخر، والموضوع واسع وكبير"⁶؛ لذا "ومن بين القصص الكثيرة المتاحة لنا، اخترت واحدة: قصة اكتشاف وفتح أمريكا"⁷.

إذن، الكتاب ليس سردا تاريخيا لقصة الاكتشاف والفتح، بل الكتاب هو قراءة تزفيتان تودوروف، الفيلسوف الفرنسي من أصل بلغاري لهذا الفتح، قراءة فيلسوف مهتم

بنظرية الأدب والثقافة وتاريخ الفكر، لذا نرى أنه يركز على نظرة "كولومبوس" للهنود وملاحظاته عنهم، كما يركز على شخصية "موكتيزوما" إمبراطور الأزتيك، وشخصية "كورتيس" هادم هذه الإمبراطورية.

هكذا نجده يستحضر مفاهيم الشعرية عن وحدة الزمن، ووحدة المكان، ومفهوم الشخصيات، ولكن هذه المرة في سياق تحليل ثقافي تاريخي" تتناوب فيه التلخيصات أو المنظورات المعممة مع المشاهد أو تحليلات التفاصيل المستكملة بالاستشهادات، ومع توقفات يعلق فيها الكاتب على ما حدث للتو، ومع أشكال من الحذف والإسقاط بطبيعة الحال. ولكن أليس ذلك نقطة انطلاق كل تاريخ".⁸

إن ما يجذب تودوروف في اكتشاف أمريكا، هو تلك العلاقة التي تنشأ بين الأنا والآخر، بين "كورتيس" و"موكتيزوما"، وبين "كورتيس" والأزتيك، ولذلك كان الكتاب يبحث في مسائل الذات والآخر، والخطاب والاتصال والعلامات، وكل هذه المسائل من خلال فتح أمريكا.

انطلقت قراءته لمسألة الآخر في فتح أمريكا من تحليل موضوعي للنصوص التي تركها المكتشفون والغزاة الأوائل للقارة الأمريكية، كرسائل كولومبوس إلى ملكي إسبانيا في تلك الفترة "إيزابيلا وزوجها فرديناند" ومذكراته ويوميته، وكذلك رسائل كورتيس ومذكراته، بالإضافة إلى مؤلفات مختلفة مثلت المواقف المسيحية المتطرفة من الهنود الحمر باتجاهها السلبي والإيجابي كمؤلفات الأب "لاس كاساس"⁹ و"ساهوجان"¹⁰ اللذين مثلا الرؤية المتعاطفة عموماً مع الآخرين من الهنود الحمر.

فالأول أكد تودوروف بأن مواقفه لم تكن منطلقة من احترام الآخر بوصفه آخر بل انطلقت من رؤيته المسيحية الأحادية، فهذا الآخر مقبول بوصفه يتضمن مجرد إمكانية أن يصبح مسيحياً.¹¹

أما الثاني فقد حرص على تنحية مواقفه الأخلاقية والمسيحية عن عرضه لمجمل الحوادث والوقائع التي تضمنها مؤلفه الكبير عن شعوب القارة الأمريكية.¹²

وتطرق تودوروف بالمقابل للمواقف المعادية المتطرفة التي مثلتها رؤى متشددة التزمت للأبعاد العرقية والقومية والمسيحية في الثقافة الأوروبية، كمؤلفات "سيبولبيدا"¹³ التي افتتحت العصر الاستعماري وأسست لفكرة الاستعمار القائمة في جانب رئيس منها على قهر الآخر وإذلاله، ثم إلغائه إلغاء كلياً، وساعد ذلك ما قام به حكام إسبانيا من منع انتشار المؤلفات ذات الطبيعة المتعاطفة مع الهنود الحمر.

والمؤلف على وعيه بشناعة ما كان، ويتمثله للحضارة المغلوبة تمثلاً متعاطفاً، إلا أنه لم يقتصر على موقف الإدانة الذي استهل به الكتاب، وإنما تساءل: كيف تمّ هذا الإنجاز الجهنمي؟ كيف يمكن أن تغلب فئة ما هذا المجتمع الآخر الراسخ بحضارته الثرية والمعقدة كما كان في المكسيك؟¹⁴.

الكتاب، إذن، يطمح إلى كشف المستتر والمسكوت عنه في فتح أمريكا كشفاً علمياً دقيقاً تفصيلياً، وذلك بتسريح عملية الإزاحة والهيمنة كي لا تتكرر ولا يعيد التاريخ نفسه، وكي يتعلم المغلوبون مقاومة تفكيكهم وسحقهم، كما يتكشف للعالم ثمن الغزوة الأمريكية. بعبارة أخرى، يدرس علاقة "كولومبوس" بالعلامات، واللغات، وبلغات الآخرين، بصورة خاصة؛ كما يدرس علاقة "موكتيزوما" بالعلامات، وصلة "كورتيس" بالعلامات كذلك، وتودوروف نفسه يقول عن عمله بأن: "هذا البحث الأخلاقي هو تأمل في العلامات، والتأويل، والاتصال: إذ لا يمكن تصور علم العلامات خارج العلاقة مع الآخر".¹⁵

إن المقارنة بين ثقافة الإسبان، وثقافة الهنود ليست جديدة. إذ يهدف إسهام تودوروف إلى توسيع هذه المقارنة إلى مجال العلامات والاتصال. إن الاختلاف الأساس الذي يراه تودوروف بين العلامات عند الإسبان، والعلامات عند الهنود هو أنه، تحقق قيام "شكّين رئيسين للاتصال، أولهما بين الإنسان والإنسان وثانيهما بين الإنسان والعالم، ثم الإشارة عندئذ إلى أن الهنود ينمّون بشكل رئيس الشكل الأخير بينما ينمّي الإسبان الشكل الأول"¹⁶، وهذا ما يفسره تودوروف أولاً كاختلاف بين نموذجين من الحوار "إننا معتادون على عدم تصور الاتصال إلا على أنه بين البشر، لأنه، ما دام العالم ليس ذاتاً، فإن حوارنا معه هو حوار لا تماثل إلى حد بعيد (إن كان أي حوار كهذا على الإطلاق).

والحال أن الاتصال بين الإنسان والعالم هو الذي يلعب دورا مهما في حياة الإنسان المنتهي إلى الأزيك، والذي يؤول ما هو إلهي وطبيعي واجتماعي من خلال العلامات والنذور، وبمساعدة ذلك المحترف الذي هو الكاهن-العراف.¹⁷

يميل هذا الاختلاف بين تصور الإسبان للعلامات، وتصور الهنود لها لصالح الإسبان. ويرى تودوروف في ذلك سبب خسارة الهنود حيث " كل شيء يحدث كما لو كانت العلامات، بالنسبة للأزيك، تنبثق بشكل أوتوماتيكي وضروري من العالم الذي تشير إليه بدلا من أن تكون سلاحا موجها إلى التلاعب بالآخر."¹⁸

وإذا كان الإسبان متفوقين، بصورة واضحة لا تقبل الجدل، على الهنود في مجال الاتصال بين البشر؛ فإنه ليس هناك، بالنسبة لتودوروف، إلا شكل واحد من الاتصال "الإنسان بحاجة إلى الاتصال مع البشر" [...] ولقاء الهنود مع الإسبان هو لقاء بشري بادي ذي بدء؛ وليس هناك ما يدعو إلى الدهشة في أن المتخصصين في الاتصال البشري يفوزون فيه. لكن هذا الفوز، الذي ننشأ عنه كلنا، سواء أكنّا أوروبيين أم أمريكيين، يوجه في الوقت نفسه ضربة جسيمة إلى قدرتنا على الشعور بالانسجام مع العالم، وعلى الانتماء إلى نظام قائم سلفاً؛ ويتمثل أثره في الكتاب العميق لاتصال الإنسان مع العالم، وإنتاجه وهم أن كل اتصال هو اتصال بين البشر."¹⁹

إن الجانب العلوي في فتح أمريكا يتمثل في "تصور الإسبان عن الهنود"، إذ يتألف هذا التصور من علامات مثل وجود السيكلوبات (مارد أسطوري بعين واحدة) والأمازونيات (شعب أسطوري من النساء المحاربات) والحوريات والبشر ذوي الذبول وبشر برؤوس كلاب.²⁰

ولم ينتصر كولومبس فاتح أمريكا على الهنود بالجيوش، بل بالعلامات، عندما قام بتعطيل منظومة التواصل بينهم وبين العالم، خاصة في مواجهتهم الغزاة، حين عطل منظومة تواصلهم مع الآلهة التي بدت خرساء بكماء.²¹

وقد فسّر تودوروف ذلك حين بيّن أن مجتمع الهنود محكوم بمنظومة علامات عناصرها كهنة وعُرفون تُعدّهم مدارس خاصة، ويتولون معرفة المستقبل عبر الاتصال مع

العالم. فتاريخ المجتمع الهندي (الأزتيكي) يتألف من نبوءات، حتى كأن الحدث لا يمكن أن يقع ما لم يتم الإنباء عنه، ولا يتحول إلى فعل إلا ما كان كلمة، ولا يقاوم الهنود المصير الذي تمّ التنبؤ به، فالنبوءة عندهم قانون يسعون إلى تحقيقه، إذ إنه عالم سيميائي جبريٌّ محكوم بالطقوس²².

إنها سيمياء تحذف دور البشر. وقد استوعب كورتيس فاتح المكسيك المنظومة العالمية التي تتحكم بالسلوك السيميائي لدى الهنود. وأيقن أن الغزو السيميائي كاف لسقوط الإمبراطورية الأزتيكية فجعل من السيمياء سلطة تفهم الهنود، وحول علاقته بالخطاب إلى رموز، واهتم بالدلالات التي ستقلها إليهم.

ومن الأمثلة البارزة التي يسوقها تودوروف في هذا الإطار أن الهنود، مثلاً، لا يعرفون الحصان، ولم يسبق لهم أن تعرفوا عليه، وكانوا على يقين أن خيول الإسبان لا تموت، لذا كان "كورتيس" يحرص دائماً على دفن الخيول الميتة بصورة سريعة وشديدة السرية. وكان يلجأ دوماً إلى إخفاء مصادر معلوماته كي يوهم الهنود بأنها مصادر غير بشرية بل قوى خارقة²³.

وكان يكثر من استخدام اللغة السيميائية الطقسية، أي لغة الرموز الهندية فينظم استعراضات الصوت والضوء والخيول والمدافع، ويصنع منجنيقاً لم يكن لاستعماله أية فاعلية عسكرية، بل كان ذا فاعلية سيميائية²⁴.

كما شارك في حياكة أسطورة عودة "كيتزالكواتل" التي تقول علاماتها السيميائية: إن الإسبان رسل الآلهة، حتى صار الإمبراطور المكسيكي "موكيتزوما" نفسه ينظر إلى "كورتيس" على أنه "كيتزالكواتل" العائد لاسترداد مملكته، وأن الإسبان قدر إلهي لا مفر منه²⁵. وهكذا كفل "كورتيس" سيطرته على إمبراطورية الأزتيك بفضل براعته الفائقة في استخدام علامات البشر، وهو ما عبر عنه الاستشراق بارتباط التصور عن الآخر باللعب به سيميائياً.

وبالمقابل عجز "موكيتزوما" عن قراءة البيض من الناحية العلاماتية قراءة صحيحة، رغم كثرة الجواسيس الذين كان يرسلهم لمراقبة الغزاة الجدد ونقل أخبارهم، ومعظم

السبب يرتد إلى أنه كان يملك تصورات مسبقة عن خصومه، ورأى في تغييرها والحيد عنها نوعاً من الكفر الذي يغضب الآلهة.

ولم يكن الجيش الإسباني قادراً على احتلال المكسيك المحصنة تحصيناً ممتازاً، لو لم يستطع "كورتيس" أن يقرأ (علامات الآخر) بشكل أفضل مما فعل ذلك الآخر مع (علامات الإسبان). وكأن المعركة كانت معركة تأويل وقدرة على قراءة مختلف أشكال العلامات وتأويل مختلف أشكال دلالاتها.

لقد حاول الهنود الحمر وملكهم "موكتيزوما" قراءة علامات الخصم في سبيل الوصول إلى حقيقته، وحقيقة قوته، ولكن يبدو أن كورتيس الإسباني استطاع أن يقرأ علاماتهم قراءة أفضل من تلك التي مارسها الهنود الحمر، وحرص فوق ذلك على أن تؤدي قراءة الآخر لعلامات الأنا إلى بلبلته وإرباكه، بسبب القراءة الخاطئة لهذه العلامات.

وعليه، يقترح تودوروف ثلاثة محاور لمعرفة الآخر "فهناك، أولاً، حكم قيمة (مستوى قيمي): فالآخر سيء، أحبه أو لا أحبه، [...] ، وهناك ثانياً، فعل التقارب أو فعل التباعد في العلاقة مع الآخر (مستوى عملي) : فأنا أتبنى قيم الآخر، أو أتوحد معه؛ أو أشبه الآخر بنفسه، وأفرض عليه صورتي الخاصة؛ كما أن بين الخضوع للآخر وإخضاع الآخر حد ثالث أيضاً، هو الحياد، أو اللامبالاة. وثالثاً، فإنني أعرف أو أجهل هوية الآخر (سيكون ذلك هو المستوى المعرفي)".²⁶

ويشير تودوروف إلى أن هذه المحاور الثلاثة محاور مستقلة، بينها علاقة تداخل، ولا توجد بينها أية علاقة تضمينية أو ترابطية²⁷، فمعرفة الآخر لا تقود بالضرورة إلى حبه، فالمعرفة لا تتضمن الحب، ولا العكس كذلك، كما أن إخضاع الآخر لا يتضمن الحب أو الكره، فالذات قد تخضع من تحبه ومن لا تحبه، من تعرفه ومن لا تعرفه معرفة جيدة. وقد كانت الآثار الناجمة عن سوء الإدراك الحادث عن المحاور الثلاثة وخيمة في التاريخ الإنساني.

تحدث تودوروف في (فتح أمريكا) عن علامات الآخر، التي كان إتقان قراءتها سبباً مركزياً، في إنجاز الانتصار الأوروبي على الهنود الحمر عند اكتشاف القارة، إذ أتقن الأوروبيون

قراءة علامات سكان المكسيك الأصليين (الأزتيك) الذين فشلوا في قراءة علامات الأوروبيين، وكان فشلهم هذا سبباً أساساً، في هزيمة جيشهم رغم تفوقه المطلق.

إذن، فقد حاول تودوروف استنطاق النصوص المكتوبة للكشف عن النسق السيميوطيقي المضمر والمحو عند القاهرين والمقهورين، وكذلك ليستشف من وراء إيديولوجيا القاهر ونصوصه رؤية القاهرين، ومنظورهم للعالم، وأنساق علاماتهم، وأنظمة التبادل عندهم.

على عكس ما روّجته الحضارة الغربية، والكشف أن حضارة الآخر، حضارة السكان الأصليين، لم تكن أكثر غنى من حضارة القادمين إليها ولكنها حضارة عاكفة على الذات تهتم بالشعائرية الشكلية أكثر من اهتمامها بالتواصل الحي، أضعفتها التناحرات الداخلية والانقسامات في الذات الجماعية²⁸، مما أدى إلى وجود ثغرات سمحت بالولوج الإسباني إلى داخلها.

واضح كذلك في تشريحه لفتح أمريكا، أنه ليس انتصاراً عسكرياً أو اختراقاً اقتصادياً فحسب، بل هو صراع حضاري تلعب اللغة بمفهومها السيميوطيقي دوراً هاماً فيه.

إن هذه اللحظة المغيرة عند تودوروف ليست لحظة سحرية، بل هي لحظة وعي جماعي يدرك آليات الاستعمار وميكانيزمات قهر الآخر، ويبدع مواجهة مناسبة تتلاءم مع نوعية الهجمة وضراوتها.

بهذا يكون تودوروف قد حلل الوثائق الخاصة باكتشاف كولومبوس أميركا عام 1492 ليكشف عن العلاقات بين الأوروبيين والهنود الحمر، بين الذات والآخر، والهوية والاختلاف. ويؤكد أن كولومبوس نظر إلى الآخر بعين ثقافته (ومن ضمنها ثقافته الدينية) وتحيزات هذه الثقافة، إذ رأى في الهنود مجرد كائنات ذات طبيعة بهيمية تصلح لأن تكون عبيداً للأوروبيين.

لكن الأطروحة الأساسية للكتاب تتمثل في الكشف عن الدور الكبير الذي لعبته العلامات وتأويل هذه العلامات - اللغة وأشكال التواصل - في العلاقة بين الإنسان وشعب

الآرتيك في زمن الغزو. ويجادل تودوروف في هذا السياق أن هيرناندو كورتيز استطاع التغلب على الآرتيك لاستفادته من معرفة ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم ورؤيتهم الدينية للعالم، التي تحسّل عليها من خلال القراءة والملاحظة.

أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول، أدخل هنا محتوى العنوان الفرعي الأول.

2.2 مسألة الوحدة والتنوع:

في هذه النقطة عمق تودوروف نظريته حول حوار الثقافات وبصورة خاصة، حول "التنوع البشري" و"تنوع الشعوب" من خلال التفكير في تاريخ الفكر الفرنسي من بداية القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن العشرين، ولا يهدف هذا التاريخ إلى أن يكون تاريخاً للأفكار لأنه غير معروف: "إن خصوصية الفكر في أنه يصدر عن ذات فردية، ولا أن يكون تاريخاً للمؤلفات، لأنه يهتم بوصف وتأويل النصوص الخاصة"³⁰، إنما يكون حواراً مع نحو خمسة عشر مفكراً فرنسياً. إنه "نحن والآخرون"، "نحن" مجموعتي الثقافية والاجتماعية، و"الآخرون" أولئك الذين لا ينتمون إلى مجموعتي"³¹.

نجد على امتداد عناوين فصول هذا الكتاب، مسألة العلاقة بين "العام والخاص"، و"الشمولي والنسبي"، "العام عبر الخاص"، و"إنسان أم مواطن"، و"فرنسا والكون"، "القومية مقابل الإنسانية" و"النسبي والمطلق"، و"الانفراد والتعددية"...النهاية المؤقتة هي "الإنسية المعتدلة".

يشير تودوروف، في افتتاحية القسم الأول من "نحن والآخرون" إلى منظورين يمكن من خلالهما رصد التنوع البشري، يتعلق الأمر، بالنسبة إلى "المنظور الأول، التنوع هو تنوع الكائنات البشرية نفسها؛ يراد إذ ذاك معرفة ما إذا كنا نشكل نوعاً واحداً أو عدة أنواع (في القرن الثامن عشر كان الجدل يدور حول "وحدة الأصل" أو "تعدد الأصول")؛ بفرض أن

النوع واحد فما هو مدى الفروق بين المجموعات البشرية. إنها بتعبير آخر، مسألة الوحدة والتنوع البشريين.

أما المنظور الثاني، الذي بدأ به تودوروف، فيطرح فيه سؤال القيم: هل هناك من قيم شمولية تنطبق على شعوب الأرض، أم أن القيم والمعايير مسألة نسبية تختلف باختلاف المجتمعات والثقافات البشرية؟ وإذا قلنا بوجود قيم كونية ومشاركة لدى جميع البشر، فما هي هذه القيم؟³² هل هي قيم الحضارة الأوروبية التي حاولت أن تفرضها على جميع شعوب الأرض عن طريق الاستعمار؟

لقد حاول تودوروف الإجابة عن إشكالية شمولية القيم أو نسبيتها، عن طريق استجواب خمسة عشر مفكراً فرنسياً. إن معظم الكتاب الذين يستعرضهم ناقداً يرون عبر مراحل متناقضة خلال مسيرتهم، فأحياناً يميلون إلى أطروحة تفوق الرجل الأوروبي على شعوب الأرض، وأحياناً أخرى يميلون إلى أطروحة المساواة بين الثقافات والشعوب.

ففي الموقف الأول، يسقطون فيما يسميه تودوروف بالشمولية، أي شمولية القيم الحضارية الأوروبية، وضرورة تطبيقها على كل شعوب الأرض ولهذه الحالة سلبياتها وإيجابياتها. فمن إيجابياتها أنها ساعدت على ظهور حقوق الإنسان. ومن سلبياتها أنها أدت خلال مرحلة الاستعمار إلى الوقوع في براثن العنصرية المركزية الأوروبية التي حاولت أن تفرض نفسها على الكل عادات وتقاليد الإنسان الآخر، مع محو ثقافته ولغته ودينه.

وأما الموقف الثاني، موقف النسبية، فأصحابه يصرحون بصعوبة الحكم على تقاليد وعادات وقيم شعب ما انطلاقاً من معايير وقيم شعب آخر. فالقيم والعادات تختلف وتتغير من ثقافة إلى أخرى. والميزة الإيجابية لأصحاب الموقف النسبي هو اعترافهم بالتعددية والمساواة.

لكن من جهة أخرى، يرى تودوروف أن أتباع النسبية الذين يعترفون بأحقية الاختلاف في القيم والعادات بين الثقافات والشعوب قد يخفون ضمناً موقفاً عنصرياً. أي أنهم يطابقون أحياناً بين الاختلاف وبين الاستعلاء والدونية.

ومن الأمثلة التي ساقها تودوروف، الفيلسوف الفرنسي "إرنست رينان"³³ Ernest Renan الذي انتقل من موقف التسامح إلى الموقف العلمي الوضعي الضيق الذي يقول بتفوق الحضارة الأوروبية على كل الحضارات البشرية الأخرى. يقول: "صنعت الطبيعة عرق عمال، وهو العرق الصيني[...]. عرق عمال في الأرض، هو الزنجي[...]. عرق سادة وجنود وهو العرق الأوروبي"³⁴، هذا ما أسس فلسفة الاستعمار وبرر الحملات الاستعمارية الأوروبية، فقد أصبح من واجب أوروبا أن تقوم بتحضير كل شعوب الأرض طوعاً أو كرهاً لأن مسيرة التقدم تفرض عليها إخراج البرابرة من همجيتهم وإدخالهم إلى نور الحضارة الأوروبية.

أما "فولتير"³⁵، فلا يتردد في تشبيه السود بالقردة، ويعتبر أن المسافة بينهم وبين العرق الأوروبي الأبيض أكبر من المسافة بينهم وبين القردة.³⁶

وأما "توكفيل"³⁷، فإننا نجده يدين استئصال الهنود الحمر في أمريكا³⁸، ولكنه يبرر عملية استعمار الجزائر من قبل فرنسا. فعندما تكون المصالح الفرنسية معنية، فإنه لا يتردد في الوقوف إلى صالح فرنسا أياً كانت الأسباب. يقول: "لا يمكن دراسة الشعوب البربرية إلا والسلاح في اليد"³⁹.

أما أتباع النسبية، الذين يخفون ضمناً موقفاً عنصرياً في أعمالهم، فنجد، من بينهم، "كلود ليفي ستروس"⁴⁰ الذي لم يؤمن بالاختلاف في العادات والقيم بين الشعوب، إلا لكي يؤكد على فكرتين أساسيتين: أولاً عدم المزج بين الثقافات المختلفة وعدم التلاقح بين تقاليد الشعوب، لأن ذلك يفقدها خصوصيتها⁴¹، وثانياً احترام ثقافات الشعوب

البدائية التي يدرسها الإتنولوجي.⁴² ولكن هذا الاحترام يخفي ضمناً تفوق القيم الأوروبية على قيم الشعوب الأخرى.

هناك شخصان فقط ينالان إعجاب تودوروف هما: "مونتسكيو"⁴³، و"جان جاك روسو"⁴⁴، فكلاهما استوعب اختلاف الشعوب الأخرى غير الأوروبية، وفهم عاداتها وقيمتها بطريقة إنسانية لا عنصرية، دون التخلي عن المبادئ الشمولية التي تشكل جوهر عصر الأنوار.

ويرى تودوروف أنه لا يمكن اتهام عصر الأنوار وتحمله مسؤولية المجازر الوحشية التي قام بها الغرب، أثناء المرحلة الاستعمارية باسم قيمه. فقد حُرف المستعمرون بمبادئ عصر الأنوار عن مسارها، وتم استخدامها كأداة لعملية الهيمنة.⁴⁵

والحل لا يكون برفض المبادئ، وإنما بالعودة إلى الجذور الصحيحة التي أسست هذه المبادئ، ويدعو تودوروف، بهذا الصدد، إلى تأسيس فلسفة "إنسية جديدة" يدعوها "إنسية معتدلة"⁴⁶ تكون أكثر استيعاباً وانفتاحاً من الإنسية الأوروبية السابقة. وهذه الإنسية هي القدرة على إنقاذ جوهر الفكر الأوروبي المتولد عن عصر الأنوار وإنقاذ الفكرة الأساسية فيه: أي شمولية القيم وخصوصيات الإنسان أينما وجد. ويعتقد تودوروف أنه يمكن للمفكرين الفرنسيين الطليعيين أن يخرجوا من الدهاليز المظلمة للعدمية، ويستعيدوا الثقة بما أنتجته قرائح أسلافهم في عصر الأنوار.

يمكن القول انطلاقاً مما تقدم أنه لم يعد صوت الذات (الباحث/ العالم) مستبعداً بحجة الموضوعية كما في المرحلة البنيوية، بل أصبح مسموعاً، لا يكتفي بالوصف، بل يفسر ويؤول ويفاوض النص، وذلك من موقع إنساني يخطر بموجبه الباحث في سياسات الحاضر ومشكلات التاريخ، محملاً بالقيم الإنسانية، عبر استراتيجية حوار ثقافي بحثاً عن الحقيقة، متبنياً ما يمكن أن نسميه بالتأويل الحوارية (لقد أردت

تجنب تطرفين: الأول هو إغراء سماع صوت هذه الشخصيات على نحو ما هو عليه، ثم إغراء السعي إلى أن أختفي أنا أيضا حتى أخدم صوت الآخر على نحو أفضل.

والثاني هو إغراء إخضاع الآخرين لنفسي، إغراء جعلهم مجرد دمي يسيطر المرء على جميع خيوط تحريكها. وقد بحثت بين التطرفين ليس عن ساحة حل وسط، بل عن طريق الحوار. إنني أسائل هذه النصوص وأبدل مواقعها وأقوم بتأويلها، لكنني أيضا أدعها تتكلم (من هنا كل هذه الاستشهادات) وتدافع عن نفسها... لم تتكلم هذه الشخصيات باللغة نفسها التي أتكلم بها. لكننا لا ندع الآخر يحيا بمجرد تركه على حاله، كما أننا لا نتوصل إلى ذلك بطمس صوته الكامل. لقد حاولت رؤيتهم، قريبين وبعيدين في آن واحد، كما لو كانوا يشكلون أحد المتحاورين في حوارنا".⁴⁷

خاتمة:

وعليه، تأسيسا لما سبق الخوض فيه يمكن القول إن:
-الاهتمام بقضايا التمثيل والغيرية الثقافية وصور الآخر شكل منعطفا ثقافيا جديدا، يستند فيه "تودوروف" إلى التاريخ وتحليل الخطاب والاستراتيجيات التي ينتج بها معناه، من أجل تمثل إيديولوجية العصر، وذلك في إطار رهان تنويري يسعى إلى المساهمة في فهم مشاكل الحاضر، في سياق مشروع تاريخي يؤكد على أهمية الوعي التاريخي في الممارسة النظرية: "لكن مشروع تاريخي: إنني أهتم بتطور المكان الذي نعطيه للآخر منذ النهضة،... ثم إنني فوق ذلك أحاول أن أتوجه إلى من يعاصرونني...أسعى إلى التحدث مع المعاصرين لي عن المشاكل التي تهمنا جميعا، كمسألة التسامح وكرهية الأجانب والاستعمار، والتواصل، وتقبل الآخر والاتحاد معه..."⁴⁸.

-بهذا الوعي التاريخي ينتقل تودوروف من جماليات السرد إلى سياسات التمثيل وبناء الآخر، ومن الشعرية إلى تاريخ الأفكار والدراسات الثقافية والأنثروبولوجية. حيث يفحص تصور الإسبان للهنود، في سياق تحليل تاريخي لا تغيب عنه الشعرية، ولكنها تحضر هنا

بطريقة مغايرة للمرحلة البنيوية، أو بالأصح بطريقة انتهاكية. تحضر هنا في سياق إنساني يجمع بين التحليل الثقافي والتاريخ والتأويل.

-دراسة الأدب في المشروع التاريخي الجديد لتودوروف لم تعد كما كانت في البويطيقا تجريدا خارج التاريخ، بل أصبحت " تتوضع على نحو لا سبيل إلى إنكاره أو مناقشته ضمن ثقافة يؤثر وضعها التاريخي على قدر كبير مما نقوله أو نفعله، إن لم يكن يحدده. وأنا أستخدم عبارة " التجربة التاريخية" ...لأن الكلمات ليست تقنية ولا باطنية بل تشير إلى انفتاح بعيدا عما هو شكلي وتقني باتجاه ما هو حي، وصراعي.⁴⁹ وهو مشروع سينهض به النقد الثقافي، الذي تمثل دافعه وأثره في " الحد من السيطرة الشكلائية على دراسة الأدب لصالح مقاربات قائمة على استعادة التجربة التاريخية التي أسيء تمثيلها وأقصيت إلى حد بعيد من المعتمد السائد وكذلك من نقده".⁵⁰

-إنها دعوة لإعادة كتابة التاريخ من منظور نقدي يكشف المسكوت عنه في الذاكرة، وفي استنطاق سياسات التمثيل في صراع القوة والصور، وفي تفكيك أوهام الإيديولوجيا، وفي نقد الهويات القاتلة، والتحليل الدقيق لاستراتيجيات السلطة، كما للتاريخ الجديدة والسرديات البديلة.

-تفحص كتاب "نحن والآخرين" يبرز وجود عدة تيمات من نوع: العرق، والأمة، والكوني، والعجيب، في كتابات عدد من الكتاب الفرنسيين مثل كلود ليفي شتراوس، ومونتين، وغويينو، ورينان، وتوكفيل، وشاتوبريان، وأنطونان آر تو، وآخرين. وما يلفت انتباهه في مواقف الكتاب الفرنسيين هو تأرجحهم بين الموقف المركزي العرقي (حيث يعامل الآخر بوصفه مجرد موضوع)، والنسبية في النظر إلى الآخر.

- 1- تزفيتان تودوروف: (1992) فتح أمريكا، مسألة الآخر، ترجمة: بشير السباعي، مراجعة فريال غزول، دار سينا، القاهرة، مصر، ط 1، وفيه حلل أهم مدونات الأرشيف الاستعماري الإسباني، وهو المعروف بـ "الأرشيف الهندي"، وفكك براءة تلك المدونات التي صورت عمليات الغزو، والإبادة، والاستيطان، ومنها "اليوميّات" لـ كولومبس الذي قاد عملية الفتح. وفي هذا الإطار يعد الكتاب السابق عملاً رئيسياً في مجال تحليل الخطاب، ويتناول بشكل مباشر وظيفة وقوة الكتابة في الوضع الكولونيالي. وتكمن رؤية الكتاب الثورية في تحديده موقع الملمح الأساسي للاضطهاد الكولونيالي عند السيطرة على وسائل الاتصال وليس السيطرة على الحياة والممتلكات أو حتى اللغة نفسها.
- 2- تزفيتان تودوروف (1998) نحن والآخر، النظرة الفرنسية للتنوع البشري، ترجمة: ربي حمود، دار المدى، دمشق، سوريا، ط 1، .
- 3- تسمية "فكر الاختلاف" شائعة في الأدبيات الفلسفية الراهنة ولعل أبرز من يمثلها نيتشه، وهايدجر، وفوكو، ودريدا، وجيل دلوز، وتعود أصوله القوية إلى "فكر الأنوار" في مجمله.
- 4- تزفيتان تودوروف: فتح أمريكا، مسألة الآخر، مرجع مذكور، ص: 26.
- 5- بيل أشكروفت وآخرون: (2006)، الرد بالكتابة، ترجمة شერთ العالم، المنظمة العربية للنشر، ط 1، ص 140.
- 6- تزفيتان تودوروف: فتح أمريكا، مسألة الآخر، مرجع مذكور، ص: 9.
- 7- المرجع نفسه، ص: 10.
- 8- المرجع نفسه، ص: 10.
- 9- ارتولومي دي لاس كاساس (1484 - 1566) كان راهباً دومينيكياً إسبانياً اشتهر بدفاعه عن حقوق السكان الأصليين في الأمريكتين. موقفه الشجاع ضد أهوال الغزو واستعمار العالم الجديد أكسبه اللقب "المدافع عن الأمريكيين الأصليين".
- 10- برناردينو دي ساهوجان، اسمه الحقيقي برناردينو دي ريبيرا، ريفيرا أوريبرا، ولد في مقاطعة ليون حوالي 1499-1500 وتوفي في إسبانيا الجديدة أو المكسيك في 5 فبراير أو 23 أكتوبر 1590، هو مبشر فرنسيسكاني إسباني.
- 11- تزفيتان تودوروف: فتح أمريكا، مسألة الآخر، مرجع مذكور، ص: 179 وما بعدها.
- 12- المرجع نفسه، ص: 231 وما بعدها.
- 13- المرجع نفسه، ص: 163 وما بعدها.
- 14- المرجع نفسه، ص: 6.
- 15- قوله لتودوروف في صفحة الغلاف.
- 16- تزفيتان تودوروف: فتح أمريكا، مسألة الآخر، مرجع مذكور، ص: 76.
- 17- المرجع نفسه، ص: 76-77.
- 18- المرجع نفسه، ص: 98.

- 19- المرجع نفسه، ص: 106.
- 20- المرجع نفسه، ص: 21.
- 21- المرجع نفسه، ص: 69.
- 22- المرجع نفسه، ص ص: 70-76.
- 23- المرجع نفسه، ص: 121.
- 24- المرجع نفسه، ص: 125.
- 25- المرجع نفسه، ص ص: 127-128.
- 26- المرجع نفسه، ص: 197.
- 27- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 28- المرجع نفسه، ص: 112.
- 29- أي تتجاوز اللغة المنطوقة أو المكتوبة لتكون كل أنظمة العلامات التي تشكل نسيج التبادل والعلاقات في مجموعة إنسانية ما، فمنها الطقوس ومنها الأبنية الاقتصادية، ومنها الأنساق الاجتماعية، ومنها الفنون والآداب... إلخ.
- 30- تزفيتان تودوروف: نحن والآخرين، النظرة الفرنسية للتنوع البشري، مرجع مذكور، ص ص: 11-12.
- 31- نفسه، ص: 9.
- 32- نفسه، ص: 17.
- 33- أرنست رينان (1823-1892م) فيلسوف ومؤرخ فرنسي، اهتم كثيرا بتاريخ الأديان واللغات والأجناس، واشتهر بدفاعه عن العلم والعقل والعقلانية، كما عُرف عند الباحثين بتحيزه للحضارة القومية الأوروبية، وتقليله من شأن حضارة الإسلام والمسلمين والعرب، بدا هذا التحيز واضحا في أغلب مؤلفاته ومقالاته ومحاضراته.
- 34- تزفيتان تودوروف: نحن والآخرين، النظرة الفرنسية للتنوع البشري، مرجع مذكور، ص: 134.
- 35- فولتير: (1694 - 1778) كاتب وفيلسوف فرنسي، عُرف بنقده الساخر، ودعوته إلى الإصلاح والمساواة والكرامة الإنسانية، ذاع صيته بسبب سُخريته الفلسفية الظريفة ودفاعه عن الحريات المدنية، خاصة حرية العقيدة.
- 36- تزفيتان تودوروف: نحن والآخرين، النظرة الفرنسية للتنوع البشري، مرجع مذكور، ص: 123.
- 37- توكفيل (1805 - 1859 م) هو مؤرخ ومنظر سياسي فرنسي. اهتم بالسياسة في بعدها التاريخي.
- 38- تزفيتان تودوروف: نحن والآخرين، النظرة الفرنسية للتنوع البشري، مرجع مذكور، ص: 224.
- 39- المرجع نفسه، ص: 229.
- 40- كلود ليفي ستراوس، عالم اجتماع فرنسي، وهو فيلسوف وسياسي ومصور وتربوي، وكاتب، واجتماعي ونفساني، ويعد من أهم البنيويين المعاصرين، وأكثرهم شهرة، ولقب باسم شيخ البنيويين، أو البنيوي

- الأول، أو رائد البنيوية المعاصرة وقد قام بتحليل الثقافات القديمة غير الغربية ودرس وحلل الأساطير والنظم الثقافية وقارن فيما بينها.
- ⁴¹- تزفيتان تودوروف: نحن والآخرون، النظرة الفرنسية للتنوع البشري، مرجع مذكور، ص: 90.
- ⁴²- المرجع نفسه، ص: 98 وما بعدها.
- ⁴³- أحد أهم فلاسفة عصر التنوير، وأول من نادى بتطبيق نظام فصل السلطات. ألهمت دراساته دستور الولايات المتحدة الأمريكية، وإعلان حقوق الإنسان، ودستور فرنسا بعد الثورة الفرنسية.
- ⁴⁴- فيلسوف وكاتب ومحلل سياسي فرنسي ولد في جنيف، يعدّ من أشهر فلاسفة عصر التنوير الأوروبي. أثرت أفكاره السياسية في الثورة الفرنسية، وفي تطوّر الاشتراكية ونمو القومية. له: دين الفطرة؛ إميل؛ خطاب في أصل التفاوت وفي أسسه بين البشر؛ محاولة في أصل اللغات.
- ⁴⁵- تزفيتان تودوروف: نحن والآخرون، النظرة الفرنسية للتنوع البشري، مرجع مذكور، ص: 431.
- ⁴⁶- المرجع نفسه، ص: 427 وما بعدها.
- ⁴⁷- تزفيتان تودوروف: فتح أمريكا، مسألة الآخر، مرجع مذكور، ص: 262.
- ⁴⁸- تزفيتان تودوروف: (1990) الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، ط2، ص: 19.
- ⁴⁹- إدوارد سعيد: (2004) تأملات حول المنفى، ترجمة ثائر ديب، دار الآداب، ط1، ص: 37.
- ⁵⁰- المرجع نفسه، ص: 30.

قائمة المراجع:

- تزفيتان تودوروف: (1992) فتح أمريكا، مسألة الآخر، ترجمة: بشير السباعي، مراجعة فريال غزول، دار سيناء، القاهرة، مصر، ط1.
- تزفيتان تودوروف: (1998) نحن والآخرون، النظرة الفرنسية للتنوع البشري، ترجمة: ربي حمود، دار المدى، دمشق، سوريا، ط1.
- بيل أشكروفت وآخرون: (2006) الرد بالكتابة، ترجمة شهرت العالم، المنظمة العربية للنشر، ط1.
- تزفيتان تودوروف: (1990) الشعرية، ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، ط2.
- إدوارد سعيد: (2004) تأملات حول المنفى، ترجمة ثائر ديب، دار الآداب، ط1.